

# التحولات الاجتماعية والاقتصادية والمجالية عند قبائل زيان زمن الحماية

## د. المكّي الذهبي

دكتوراه في تاريخ الزمن الراهن  
جامعة محمد الخامس  
الرباط - المملكة المغربية



## بيانات الأطروحة

المكّي الذهبي	الباحث:	أطروحة لنيل الدكتوراه في العلوم الإنسانية
الأستاذ الدكتور الجليلي العدناني	إشراف:	من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
الأستاذ الدكتور جمال الكراكي	التخصص:	جامعة محمد الخامس بالرباط.
تاريخ الزمن الراهن	التاريخ:	
يونيو ٢٠٢٣	عدد الصفحات:	
٥٦٠ صفحة		

ينبع اختيار قبائل زيان كموضوع لهذا البحث من اهتمامنا بالتاريخ الاجتماعي المعاصر وبخاصة بعض القضايا المهملة في متونه، وكذا اهتمامنا ببعض الفئات الاجتماعية المهمشة في كتب التاريخ. وعلاوة على ما سبق، جاء اختيار هذا الموضوع في إطار استمرار اهتمامي بمجال وقبيلة زيان، وهو موضوع سبق الاشتغال عليه في سلك الماستر الأمر الذي يسر إمكانية الاطلاع على بعض وثائق الأرشيف الدبلوماسي المرتبط بالفترة الكولونيلية. مثلت هذه المرحلة باعثاً كبيراً على تجميع المزيد من وثائق الأرشيف الأجنبية وتعميق البحث في هذا الموضوع، ومقابلتها بما تزخر به الذاكرة الدفينة في الخزانات الوطنية ومراكز الأرشيف بالمغرب والخارج. فرضت طبيعة البحث كموضوع تتعدد أبعاده الممتدة في الزمان والمكان، ما يمكن تسميته بالتعددية المنهجية. فقد تم الاعتماد على المنهجين الاستنباطي والاستقرائي في التقاط الإشارات المتناثرة وتركيبها لسد الثغرات والبياضات التي يحبل بها الموضوع، وفي الانتقال من الشمولي إلى المحلي أو العكس في الكثير من محاوره. كما اضطرنا موضوع القبيلة، إلى استخدام المنهج التاريخي بهدف تيسير عملية البحث والتفسير لمجموعة من الظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية واستخدام المنهج المقارن انطلاقاً من إبراز أوجه التماثل والاختلاف، سواء بين القبيلة من جهة والنسيج القبلي المجاور من جهة ثانية، أو بين مكونات القبيلة نفسها.



10.21608/KAN.2024.355017 معرف الوثيقة الرقمي:

## كلمات مفتاحية:

قبائل زيان؛ الموارد الطبيعية والبشرية؛ المقاومة والحركة الوطنية؛ المجال الزياتي؛ الأعراف الأمازيغية؛ التنظيم الإداري.

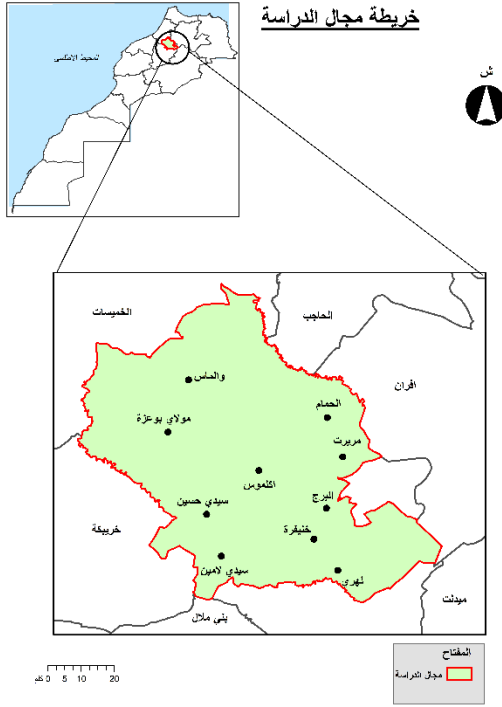
## مُقَدِّمَةٌ

تتوزع قبائل زيان إلى أربع مجموعات أو شبه اتحاديات استوطنت مجالا تميز بالتنوع من حيث خصائصه الطبغرافية وغنى موارده الطبيعية، وتقاسمت نفس العادات والأنظمة الاجتماعية، الأمر الذي فسح المجال لعوامل تاريخية وسياسية ساهمت في توحيدها وانصهارها ضمن اتحادية زيان، وهي واحدة من أقوى اتحاديات حلف آيت أوالمو. ولعله من المفيد الإشارة

إلى أن التقارير والمذكرات الكولونيلية التي اهتمت بتصنيف قبائل زيان، جاءت ناقصة وغير دقيقة، بل ومتضاربة في بعض الأحيان. ويرجح أن هذه التصنيفات التي أنجزها الرحالة الأوروبيون وضباط الشؤون الأهلية، قد تمت على عجل وتحت ضغط الدوافع العسكرية. بيد أن نهاية عمليات "التهدئة" في بداية العقد الثاني من عهد الحماية فسح المجال لمراجعة شاملة للبطاقات الخاصة بقبائل زيان، وتخييين مهم لمكوناتها.

من العرفان بالجميل لثقافة المنشأ التي تعاني من مختلف أشكال الإقصاء والتهميش.

**دوافع موضوعية:** ينبع اختيار قبائل زيان كموضوع لهذا البحث من اهتمامنا بالتاريخ الاجتماعي المعاصر وبخاصة بعض القضايا المهمة في متونه، وكذا اهتمامنا ببعض الفئات الاجتماعية المهمشة في كتب التاريخ. وعلاوة على ما سبق، جاء اختيار هذا الموضوع في إطار استمرار اهتمامي بمجال وقبيلة زيان، وهو موضوع سبق الاشتغال عليه في سلك الماستر الأمر الذي يسر إمكانية الاطلاع على بعض وثائق الأرشيف الدبلوماسي المرتبط بالفترة الكولونيالية. مثلت هذه المرحلة باعثاً كبيراً على تجميع المزيد من وثائق الأرشيفات الأجنبية وتعميق البحث في هذا الموضوع، ومقابلتها بما تزخر به الرائد الدفينة في الخزانات الوطنية ومراكز الأرشيف بالمغرب والخارج.



### الإطار المجالي للدراسة

يمتد مجال الدراسة على قسم كبير من المغرب الأوسط ليشمل أطراف الشمال الغربي من الأطلس المتوسط وجزء من الهضبة الوسطى. وصلت الطلائع الأولى من قبائل زيان إلى مشارف هذا المجال مطلع القرن السادس عشر الميلادي في إطار هجرة القبائل الصحراوية الصنهاجية والعربية من جنوب المغرب إلى شماله.

يعتبر استقرار قبائل زيان بمواطنها الحالية حديث العهد، إذ لا يتجاوز ثلاثة قرون. بيد أن تحديد ظروف وصولهم إلى هذا القسم من الأطلس المتوسط والهضبة الوسطى، يعتبر أمراً صعباً بالنظر إلى شح المادة المصدرية وضعف المعلومات المتناثرة في بعض النصوص التاريخية. فباستثناء الإشارة التي أوردها إميل لاووس « E. Laoust » عن ظهور "إزايان" في المنطقة الممتدة ما بين غريس وأسيف ملول سنة 1004م، نكاد لا نجد أثراً لمواطنهم الأولى، ومسار هجرتهم من الجنوب إلى الشمال. لهذا كان لزاماً علينا توجيه البحث نحو تاريخ الهجرات القبلية التي عرفها المغرب لتقفي أثر حركية إزايان في المجال، ورصد ظروف وصول الطلائع الأولى من مجموعاتها إلى الأطلس المتوسط والأزغار، نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر الميلادي. وطيلة مسار هذه الهجرة الممتدة في الزمان والمكان، وجدت مجموعة كبيرة من القبائل التي شدت الرحال بشكل جماعي من سهوب الصحراء إلى مراعي الأطلس ضالتها ومبتغائها في هذا المجال الجديد. كانت هذه الكتلة الكبيرة من القبائل تتشكل من زيان وبنو أحسن وزعير وكروان وزمور وبنو مطير وآيت مكيلد وإشقين وآيت مجاط.

وعلى الرغم من وعورة التضاريس وقساوة المناخ تأقلمت قبائل زيان والمجموعات التي رافقتها مع الظروف الطبيعية الجديدة، وهو ما انعكس في اعتماد نمط عيشها على الترحال مع بعض أشكال الاستقرار التي فرضتها ضرورات الزراعة وخبز المحاصيل في المداشر و"تغيرمين". بيد أن النشاط الزراعي في زيان لم يتجاوز دوره كنشاط تكميلي في دورة الحياة الاقتصادية. فعلى الرغم من تعاطي قبائل المنطقة لبعض الزراعات البعلية كالحبوب وزراعات أخرى مسقية، يمكن القول إن ممارسة الرعي ظلت تمثل النشاط الاقتصادي الأساسي لدى الزيبانيين وعموم قبائل المغرب الأوسط، وخضعت لحركية مجالية تقوم على التنقل والترحال بين المنطقة الجبلية والأزغار. وعشية الاحتلال الفرنسي للمغرب، كانت قبائل آيت أومالو لاتزال تعيش على وقع الحروب القبلية والعداوات القديمة. غير أن مدهامة القوات الاستعمارية الفرنسية لمجالها القبلي أوقف الصراعات البيئية وأرغمها على الاستجابة لدعوات المقاومة والتصدي للاحتلال.

### دواعي اختيار موضوع البحث

**دوافع ذاتية:** الانحدار من جوار منطقة البحث، مما عزز الارتباط بالأمازيغية لغة وثقافة وتراثاً، وفرض نوعاً

## إشكالية وأسئلة البحث

لم ينحصر اهتمام هذه الدراسة في مقارنة التحولات التي عصفت بمنطقة زيان وعموم الأطلس المتوسط فحسب، وإنما شملت مجالها القبلي في كل أبعاده الترابية، والطبيعية، والسياسية، والاقتصادية. وقد استوجب رصد مجمل هذه التحولات التي تزامنت مع الاحتلال الفرنسي للبلاد، توجيه البحث إلى قبائل زيان ما قبل الحماية بهدف الوقوف على أوضاعها، وعلاقتها بالمخزن وبقبائل الجوار. ومن خلال هذه الإشكالية العامة، توخى موضوع البحث الإجابة على مجموعة من الأسئلة يمكن حصرها فيما يلي:

- كيف يمكن مقارنة مجال البحث الذي تواترت بشأنه تسميات مختلفة، وما خصائصه الطبيعية والبشرية في زيان؟ وما مميزات علاقات زيان بالمخزن وبقبائل الجوار؟
- ماهي مميزات الغزو العسكري لبلاد زيان، وما نتائجه على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والمجالية؟
- ما هي سياقات ومراحل نشوء الحركة الوطنية في زيان؟ وكيف تم تطبيق سلطة المراقبة وتثبيت القبائل في المجال؟
- إلى أي حد ساهم التنظيم الإداري الفرنسي في ضبط ومراقبة قبائل زيان ورسم حدود مجالها الترابي والإداري؟

## المنهج المعتمد

فرضت علينا طبيعة البحث كموضوع تتعدد أبعاده الممتدة في الزمان والمكان، ما يمكن تسميته بالتعددية المنهجية. فقد تم الاعتماد على المنهجين الاستنباطي والاستقرائي في التقاط الإشارات المتناثرة وتركيبها لسد الثغرات والبياضات التي يجبل بها الموضوع، وفي الانتقال من الشمولي إلى المحلي أو العكس في الكثير من محاوره. كما اضطرنا موضوع القبيلة، إلى استخدام المنهج التاريخي بهدف تيسير عملية البحث والتفسير لمجموعة من الظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية واستخدام المنهج المقارن انطلاقاً من إبراز أوجه التماثل والاختلاف، سواء بين القبيلة من جهة والنسيج القبلي المجاور من جهة ثانية، أو بين مكونات القبيلة نفسها. ويبنى المنهج التاريخي خيطاً ناظماً لحدود وتداخل المناهج المعتمدة وانفتاحها على بعضها البعض.

## مصادر البحث

### المصادر المغربية:

**الوثائق الرسمية**، ومنها وثائق مديرية الوثائق الملكية بالرباط (رسائل سلطانية)، ووثائق الخزنة الحسنية بالرباط، ووثائق الجريدة الرسمية (ظواهر شريفة وقرارات وزيرية).

**مصادر ومراجع مغربية مختلفة**، ويندرج معظمها في كتب الحوليات التاريخية التي يكاد ينحصر اهتمامها في التأريخ للأسر التي تعاقبت على الحكم، لكن مع ذلك وجدنا في حديثها عن الانتفاضات القبلية ما يفيد البحث ويضيء بعض العتمات في موضوعاته.

### المصادر والمراجع الأجنبية

**الوثائق الأجنبية**: شكلت التقارير والمستندات التاريخية المحفوظة في الأرشيفات الفرنسية مرجعاً أساسياً لهذا البحث، وبالأخص منها وثائق الأرشيف الدبلوماسي في نانت «Nantes» الفرنسية، ووثائق أرشيف المغرب بالرباط.

### تقارير الرحالين والمستكشفين والضباط الفرنسيين:

شكلت أعمال التعرف والاستطلاع التي أنجزها العديد من الرحالين والسفراء والمبشرين الأوربيين مادة مصدريّة مهمة، وكان من أبرزهم كيدنفيلد «M.Quedenfeldt» وشارل دوفوكو «Ch. De Foucauld» ودوسيكونزاك «R. de Ségonsac» وغيرهم ممن توافدوا على بلاد زيان منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

يعود أول اتصال للضباط الفرنسيين بقبائل زيان، من جهة تخومها الغربية، إلى سنة ١٩١٠. فقد ذكر الضابط فلاي سانت-ماري أنه كان على اتصال مع القائد العياشي بمركز مولاي بوعزة خلال هذه السنة، ومع خلفه القائد الشريف الشرقي بن علي الذي قدم له خدمات مهمة كمخبر ومرشد في جولات الاستطلاع والتعرف على المنطقة. وانطلاقاً من مكتب الشؤون الأهلية بمركز مولاي بوعزة، أنجز بول أودينو «Paul Odinot» عدداً من الدراسات حول بلاد زيان، ولعل أبرزها، في تقديرنا، تلك التي اتخذت من مدينة عوام وقلعة مدينة الكارة الأثرية موضوعاً للبحث والتنقيب سنة ١٩٢١، بتوجيه من هنري دوكاستري «H.de Castries» الذي كانت في حوزته العديد من المخطوطات.

لتمثيل مجال زيان في الأعمال المنجزة من طرف ضباط الشؤون الأهلية، بيد أنه من المفيد الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه بعض المستعربين منهم، فضلاً عن آخرين تعلموا الأمازيغية كلغة ضرورية للتواصل مع الأهالي في مناطق تعيينهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر روبري أسبينيون *Aspinion R.* و فيكتوريان لوبينيك *Victorian Loubignac*، والقبطان سعيد كَنون *Guennoun S.* ورايموند بيروني *Peyronnet R.* ولعله من المفيد الإشارة إلى أن المجال يضيق بعرض كل المنوغرافيات والدراسات الأجنبية التي نهلنا منها بعين ناقدة في إنجاز هذا البحث، وفي مقدمتهم فرانسوا بيرجي والجينرال كيوم وآخرين.

أفادتنا أيضًا في إنجاز هذا البحث العديد من الأطروحات الأجنبية التي تناولت بالبحث والدراسة منطقة الأطلس المتوسط أو إحدى قبائلها، وأطروحات أخرى تناولت في سياق موضوعها أو بشكل جزئي قبائل زيان ومجالها الترابي، ومنها على الخصوص:

- أطروحة الأستاذ كاستون بودي *Beaudet G.* في الجغرافيا حول قبائل بني مكيلا الشمال.
- أطروحة الأستاذة أوريليا دوسير *Aurélia D.* في التاريخ حول الأطلس والتعرف على المغرب.
- أطروحة الأستاذ ميكايل بيرون *Peyron, M.* حول منطقة تونفيت وبلاد آيت يحيى.

### خطة البحث

انطلاقاً من الإشكالية الأساس التي أشرنا إليها أعلاه، والتساؤلات التي تفرعت عنها، ارتأينا تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام موزعة إلى ستة عشر فصلاً على النحو التالي:

**القسم الأول:** وتم تخصيص فصوله الأربعة، للتعريف بالإطار الجغرافي والبشري العام لموضوع البحث، وأولينا فيه اهتماماً خاصاً بخصائص بلاد زيان الطبيعية مع التركيز على فازاز كمجال احتضن مواطن قبائل زيان وعموم آيت أومالو. كما أولينا لجانبه الطوبونيمي حيزاً من الرصد والتتبع. وبخصوص الإطار البشري، حاولنا تقديم صورة مركزة عن المكونات القبلية لزيان كاتحادية كبيرة، وذلك وفق مقارنة استحضرت علاقتها بالمجال. وقد استلزم هذا المنظور البحث في جذور القبيلة وتتبع مسار هجرتها من الجنوب إلى الشمال، وصولاً إلى مواطنها التي حطت فيها الرحال، مع ما تخلل هذه اللوحة التاريخية، من رصد لطبيعة ومسار علاقاتها بالسلطة المركزية خلال العهد العلوي.

**القسم الثاني:** وخصمنا فصوله الستة لدراسة بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في زيان. وتناولنا فيها رغم شح المادة المصدرية الإنتاج الزراعي والنشاط الرعوي، إضافة إلى إبراز نقط الضعف والقوة فيهما. كما خصمنا حيزاً من هذا القسم، لدراسة جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية، ومنها على الخصوص مكانة الشرع والعرف، ومكانة

يطول المقام لعرض كل الأعمال المنجزة من طرف ضباط الشؤون الأهلية، بيد أنه من المفيد الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه بعض المستعربين منهم، فضلاً عن آخرين تعلموا الأمازيغية كلغة ضرورية للتواصل مع الأهالي في مناطق تعيينهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر روبري أسبينيون *Aspinion R.* و فيكتوريان لوبينيك *Victorian Loubignac*، والقبطان سعيد كَنون *Guennoun S.* ورايموند بيروني *Peyronnet R.* ولعله من المفيد الإشارة إلى أن المجال يضيق بعرض كل المنوغرافيات والدراسات الأجنبية التي نهلنا منها بعين ناقدة في إنجاز هذا البحث، وفي مقدمتهم فرانسوا بيرجي والجينرال كيوم وآخرين.

### الدراسات السابقة للبحث

حظي موضوع زيان، كقبيلة وكمجال، باهتمام ثلة من الباحثين المغاربة والأجانب الذين ساهموا في دراسة منطقة زيان في رسائلهم وأطروحاتهم الجامعية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- أطروحة الأستاذ محمد بن لحسن الصادرة باللغة الفرنسية والموسومة ب "المقاومة المغربية للتعرب الفرنسي في بلاد زيان (١٩٠٨-١٩٢١).
- رسالة الأستاذ المالكي الملكي بعنوان "الغزو الاستعماري ومقاومته في تادلا والأطلس المتوسط".
- أطروحة الأستاذ إدريس أقبوش بعنوان "قبائل زيان خلال فترة الحماية- دراسة اجتماعية واقتصادية".
- أطروحة الأستاذ جواد التباعي بعنوان: " نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين".
- أطروحة الأستاذ عبد العزيز بودرة بعنوان "القضاء العرفي بالمغرب خلال عهد الحماية الفرنسية ١٩١٢-١٩٥٦م".
- أطروحة الأستاذ عبد القادر اسويدي بعنوان التحولات الفلاحية في مجال بني مكيلا الشمالية منذ ١٩٧٠ وأثرها على تدبير الموارد الطبيعية.
- أطروحة الأستاذ إبراهيم ياسين بعنوان آثار التغلغل الفرنسي في جنوب الأطلس الكبير، نموذج مجموعة قبائل آيت واوزكيت (١٩١٢-١٩٣٩).

وفي إطار رصد وتتبع عمليات الاستطلاع الأولى لبلاد زيان، كان لنا شرف الاطلاع على الدراسة القيمة للأستاذ الجيلالي العدناني حول الصحراء، والاسترشاد بمجموعة من وثائق الأرشيف الفرنسية التي أرخت

• على الرغم من الضغوط الهائلة التي مارستها سلطات الحماية على القواد الزيانيين في بداية الخمسينيات، لم تنقطع جسور اتصال هؤلاء الأعيان بالسلطان. ولعل الاستمرارية التي ميزت هذه العلاقة كانت أحد الأسباب التي جعلت بعض قياد إمدزان يوضعون تحت المراقبة والتتبع للاشتباه في علاقتهم بقيادة الحركة الوطنية والمحلية.

الشرفاء في القبيلة، فضلاً عن مختلف المؤسسات والأوقاف التي كانت ترعى هذه الجوانب الروحية.

**القسم الثالث والأخير:** وتوزع إلى ستة فصول تناولنا فيها الغزو الفرنسي لمنطقة ورد فعل القبائل الزيانية عبر المقاومة العسكرية التي أبلت فيها بلاء مشهودا له، وعبر العمل الوطني السياسي. وبذلك تناولت فصول هذا القسم مراحل التدخل العسكري الفرنسي في زيان والأطلس المتوسط، واندلاع المقاومة الزيانية بقيادة موحا اوحمو. وبقدرا حاولنا إبراز مختلف وسائل الغزو وآليات الإخضاع التي نهجتها قوات الاحتلال الفرنسي، سعينا كذلك إلى رصد وتتبع أشكال المقاومة الزيانية التي استبسلت في الدفاع عن القبيلة وعن مجالها الترابي الذي تم تقطيعه إلى وحدات إدارية من دوائر ومكاتب وملحقات. وفي محاولة لإبراز دور الجبال المغربية في الدود عن استقلال البلاد، ومساهمة زيان وقبائل الجوار في كسر طوق الحصار والتهميش، ارتأينا إنهاء هذا البحث بفصل خاص بالحركة الوطنية المحلية في محاولة لرصد وتتبع نشوئها، وانخراط نخب وأعيان من زيان والقبائل المجاورة في العمل الوطني.

### أهم خلاصات البحث

- أكد البحث على أهمية المنطقة الجبلية في تاريخ المغرب، ليس لكونها الخزان الرئيس للمياه فحسب وإنما شكلت كذلك خزانا ديمغرافيا في أحلك الفترات التي مر منها المغرب من جوائح وحروب وكوارث.
- شكلت جبال زيان وبسائطها وجهة لتوافد مجموعات من خارج إطار القبيلة، سواء للاستقرار فيها أو للعبور إلى وجهات أخرى، وكان ضمنها مجموعة من الشرفاء والمرابطين والزوايا القادمين من الصحراء.
- عكست حركة الانتجاع التي انتظم في إطارها إيقاع تنقل القطعان تنوع المجال الزياني وتكامل قسميه الجبلي والهضبي. بيد أن سياسة الحماية القائمة على المراقبة والتضييق على هذه الحركية سرعت إلى حد بعيد من وتيرة التحولات التي شملت تدبير المراعي وبرز أشكال من الاستقرار ببعض المراكز.
- لم ينحصر إسهام بلاد زيان وعموم المناطق الجبلية، خلال تصديها للغزو الاستعماري، في المقاومة المسلحة فحسب، بل كان لها إسهام كبير كذلك في المقاومة السياسية عبر العمل الوطني الذي لم يكن حكراً على كبريات الحواضر والمدن كما يشاع.